دلالة الزمان والمكان في قصيدة الجبل لابن خفاجة الأندلسي

قراءة تأويلية

■ د. فاطمة أرحومة علي عامر*

● تاريخ استلام البحث 2024/07/11م ● تاريخ قبول البحث 2024/11/02م

■ **المستخلص:**

تركز هذه الدراسة على دلالة الزمان والمكان في قصيدة الجبل لابن خفاجة الأندلسي من خلال توظيف القراءة التأويلية لدلالة الزمان والمكان ومحاولة استنطاق النص من خلال توظيف العديد من المعاني والدلالات وإعادة بناء النص وفق تصور القارئ بوصفه المنتج الذي يقدم قراءة جديدة للنص وفي سبيل تحقيق ذلك تم توظيف الجانب الإحصائي لإعطاء دلالة على التصور الجديد فمن وصف الجبل بنينا صورة جيدة تدل على الوطن فالجبل مجرد إسقاط على الوطن الذي غادره الشاعر وقد نجح الشاعر في وصف الجبل للدلالة على الوطن الراسخ في قلب كل إنسان يحب الوطن وينتمي إليه.

● **الكلمات المفتاحية:** دلالة – الزمان – المكان – قصيدة الجبل – ابن خفاجة الأندلسي – قراءة – تأويلية

abstract:

This study focuses on the significance of time and place in the poem “The Mountain” by Ibn Khafaja Al-Andalusi by employing an interpretive reading of the significance of time and place and attempting to interrogate the text by employing many meanings and connotations, reconstructing the text and searching for other spaces to which the text takes us, according to the reader’s perception as the product that provides a reading. New to the text, and in order to achieve this, the statistical aspect was employed to give an indication of the new perception, from the description of the mountain, we built a good picture that indicates the homeland. The mountain is merely a projection of

* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة سبها E-mail: fatemaamer2030@gmail.com

the homeland that the poet left. The poet succeeded in describing the mountain to indicate the homeland that is firmly established in the heart of every person who loves the homeland and belongs to it.

● **Keywords:** significance - time - place - poem of the mountain - Ibn Khafaja Al-Andalusi - reading - interpretation

■ المقدمة:

يرتكز النص موضوع الدراسة على مفهومين مركزيين هما: الزمان والمكان وسأتناول دراستهما من خلال الدلالة والبعد التأويلي لكل منهما وسأقف في الزمان عند الماضي والحاضر والمستقبل وفي المكان سأحاول دراسته من خلال الدلالة على الذات والوطن والوحدة والغربة والتوحد والانفصال وذلك بتقسيم معاني النص إلى ألفاظ محددة لغرض الدراسة والتحليل وقبل الولوج إلى موضوع الدراسة سأقف عند بعض المفاهيم التي وردت في العنوان وتقوم عليها الدراسة كذلك المعاني ودلالات الألفاظ التي وظفت في النص والانطلاق منها لإعادة بناء النص من منظور القارئ المنتج الذي يعيد بناء النص وفق قراءة جديدة تفتح على قراءات أخرى للنص .

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة جديدة للنص والانطلاق من دلالات النص لبناء النص وفق قراءة القارئ المنتج للنص من خلال إعادة بناء النص في صورة جديدة.

وتظهر إشكالية الدراسة من خلال أن النص يطرح وبإلحاح أزمة الزمن ذلك الزمن الذي حير الإنسان عبر العصور والهاجس الذي ظل وسيظل رابضا في مخيلته ساعيا في سبيل الكشف عن كنه الانتقال من الماضي إلى الحاضر ومن ثم إلى المستقبل متسائلا لماذا لا يرجع الزمن الذي مضى؟ ومن الذي يتغير الإنسان أم الزمن؟ وهل سر التغير يكمن في شعورنا بالزمن أم بالظروف المحيطة بنا؟ كذلك يطرح النص دلالة المكان الذي يرتبط به الإنسان وينتمي إليه ومن هنا نتساءل لماذا اختار الشاعر الجبل من بين كل معالم الطبيعة؟ وهل اختياره مرتبط بالغربة أم الوحدة؟ وهل التوحد بالجبل نتيجة المكان أم الزمان أم الذات؟ وهل الانفصال عن الجبل نتيجة المكان أم الزمان أم الذات؟ فهذه التساؤلات وغيرها تمثل إشكالية الدراسة التي ستحاول الدراسة الإجابة عن بعضها

● **أولا : الزمان والمكان المفهوم والأقسام**

المكان والزمان ثنائية ترفض الانفصال والانقسام فلا يمكن أن تتصور الزمان بدون مكان والمكان بدون زمان فكلاهما يوثر في الآخر ويعطي لوجوده المعنى الذي ندركه ونحسه وقد يظهر للقارئ « أن لا علاقة بين المكان والزمان؛ فشتان بينهما، فالمكان مادي، أما الزمان فهو يدرك ويلاحظ، أي غير مادي" (جمعة،2023،ص: 12) ولكن أغلب الدراسات العلمية أثبتت "أن المكان والزمان ما هما في الواقع إلا مظهران لبنية واحدة تسمى المكان/ الزمان أوالزمكانية إذا جاز التعبير، وهذا لا يبدو إلا بالتأمل فيما حولنا، فالسفر، أيا كان براً، بحراً، جواً، وفي الفضاء الخارجي؛ يعبر عن الوحدة الزمانية والمكانية، فإذا كنا نقطع الطريق مسافة مئة كيلو متر لمدة ساعة، فهذا يعني مكان وزمان متحدين، ونفس الأمر في حركاتنا في الفضاء المكاني، فنحن نقضي حوائجنا بحركة أجسادنا في زمن ما على مكان ما، وهكذا يكون الزمكاني" (جمعة،2023،ص: 12).

مما سبق يظهر لنا بوضوح علاقة الالتحام والاتحاد بين الزمان والمكان على الرغم من أن بعض الدارسين والدراسات قد فصلت بينهما نجد دراسة تتناول الزمان أو الزمن كعنصر مستقل بنفسه عن المكان وتناولت المكان كعنصر مستقل عن الزمان ولكن القارئ الفاحص يجد أن الدارسات مهما استقلت في التفرد بأحد العنصرين إلا إنها تشير للمكان عندما تتناول الزمان وتشير إلى الزمان عندما تتناول المكان وهذا دليل على أن الزمان والمكان متلازمان متحدان مهما استقلت الدراسات في تناول أحدهما بمعزل عن الآخر.

وفي هذه الدراسة لن أقف عند التعريفات والمفاهيم التي عرفت بالزمان والمكان فقد اختلفت في تحديد مفهوم موحد للعنصرين بسبب اختلاف التخصصات والمناهج العلمية التي اعتمد عليها الدارسون في تحديد مفهوم الزمان والمكان وهذا الاختلاف في المفاهيم قاد إلى انقسام آخر حول أقسام الزمان والمكان فالزمن في النص السردي يختلف عن الزمن في النص الشعري فمن زمن الاستباق إلى زمن الاسترجاع ومن زمن السرد إلى زمن الخطاب وغيرها كثير والمكان ليس بمعزل عن هذا التشعب والتقسيم فمن الأمكنة الجامدة إلى الحية ومن الأمكنة المغلقة إلى المفتوحة وغيرها وكل هذا لا يتسع المقام

في هذه الورقة لتناوله وفي هذه الدراسة سأتناول الزمان من خلال الالفاظ الدالة عليه والدلالات التي عبر عنها النص والمكان من خلال توظيف الجبل كرمز ارتبط بالزمن لأصل من خلاله الى البعد التأويلي لهذا المكان (الجبل) وهذا ما ستركز عليه الدراسة .

● **ثانيا: القراءة التأويلية للنص**

لقد حظي مصطلح القراءة التأويلية بالكثير من الاهتمام من قبل العديد من الدارسين وقد تشعبت وتعددت حوله الآراء بسبب تعدد اتجاهات ومجالات الدين قاموا بدراسته والأسس المعرفية التي اعتمدوا عليها نلاحظ أن المصطلح يجمع بين أمرين هما (القراءة والتأويل) وكل مصطلح منهما تم تناوله بطرق شتى وظهرت عليه دراسات كثيرة لذلك فإن الدراسة لا تتسع للخوض في هذه الآراء والتعريفات والمفاهيم التي تناولته ولا تتبع الملامح التطورية للمصطلحات منفردة أو مجتمعة ونقصد القراءة كقراءة أو التأويل كتأويل وبالتالي كمصطلحات نقدية في النقد العربي و الغربي فمفهوم القراءة عند « ألتوسير تعني الوصول إلى مالا يصرح النص به، وما دام النص لا يصرح بكل ما في جوفه ، فالقراءة إذا هي إعادة فهم النص في سياقات غير معلنة ، ناتجها اكتشاف لمدلولات ومواقف إضافية أو أصيلة مسكوت عنها « (الدغمومي، ص: 269) والقراءة عند» بارت تغدو فعلًا إنتاجيًا من قبل القارئ أثناء عملية القراءة فهو ينزع بها نحو الإبداعية، فيمثلها إبداعًا آخرًا يكتب من حول إبداع آخر (غانم ،ص: 20) وعند: تودوروف: إنها أشكال من التعامل لا تطابق غيرها من الدراسات المعروفة التي تعطينا أنواعا من القراءة مثل : 1- قراءة الإسقاط 2- قراءة التعليق 3- القراءة الشعرية ...» (عايزري ،ص: 27) .

ومن هنا «فمفهوم القراءة متعدد ليس له أدوات واضحة ، ولا مرجعية قارة ، ولا موضوع خاص» (الدغمومي، ص: 273) وتتعدد «القراءات النصية بتعدد القراء وتباين مرجعياتهم الثقافية والمعرفية، الفلسفية، النفسية، التراثية والأثر البيولوجي، هذا المخزون التراكمي والثراء المصادري، يمد الناقد بمجموعة من الآليات النقدية التي تسمح بدورها للنص التمدد في أطر المعرفة الإنسانية و أنساقها» (هوارية قادة ،أخرى، ص: 42) وبالتالي فإن « التعدد الذي يتحقق من القراءة هو تعدد مقاربات أي خلق قراءات كل واحدة متفردة

بأسئلتها ورؤيتها وأدوارها غير ملتزمة بشروط مسبقة سوى ما يمكن أن يبوح به النص فهي قراءة متفردة بنصها وقواعدها الخاصة التي تعطيها المعقولية « (الدغمومي، ص: 277-278) وكل ذلك أدى إلى ظهور القراءة التشريحية والقراءة السميولوجية والقراءة البنيوية والقراءة النقدية والقراءة السياسية والقراءة السوسيولوجية والقراءة الاسلوبية والقراءة الموضوعاتية (الدغمومي ،ص: 273) بالإضافة إلى القراءة الدلالية والقراءة السميائية والقراءة التأويلية ومن يتصفح الدراسات الحديثة والمعاصرة سيجد قراءات أخرى وبتعدد أنواع القراءات في النص الأدبي تنوع القراء و «قد أورد أصحاب نظرية القراءة خاصة أبرز مجموعة في القراء على التوالي في أهمهم : القارئ الافتراضي ، القارئ الحقيقي ، القارئ المثالي ، القارئ الأعلى ، القارئ المخبر، القارئ المقصود، القارئ الضمني، « (هوارية قادة ، أخرى ، ص: 46،47 ،48) .

وبعد كل ما سبق فإن مصطلح القراءة التأويلية مصطلح مركب لا يمكن فصله لأن الفصل بينهما يلغي خصوصية الترابط المفهومي بينهما، فلا فائدة من قراءة تخلو من إنتاج معنى، كذلك لا يصدر أي تأويل ما لم تسبقه قراءة، فنتيجة القراءة هي مضمون التأويل، أي أن القراءة عملية سابقة لكل عملية تأويلية (جلولي وآخر،2017، ص:80) وهذا جعل بعض الدراسات تصل إلى النتيجة التالية " لا تأويل بدون فهم. اشتراط ليس من الممكن تجاوزه، فعملية الفهم تسبق عملية التأويل، أي العملية التأويلية تأتي بعد استيعاب / استملاك الفهم " (غانم، 2022، ص 31). وبما " أن الأدب لا يتحقق إلا بوجود المؤلف، أصبح الأدب اليوم كذلك لا يتحقق إلا بوجود القارئ، وعليه يجب أن ننظر إلى الأدب اليوم من زاوية جمالية التلقي، أي من الزاوية التي تبين لنا مدى تفاعل القارئ مع النص" (غانم، ص:26).

وبالتالي فإن الغاية من تأويل النص " هو تلاحم بنية النص وتجربة القارئ، ويتم تحرير النص من قصدية المؤلف ومرجعياته المختلفة وإلحاقه بأفق القارئ وعالم القراءة، لتصبح القراءة تحققًا ضمنيًا لإمكانيات النص الدلالية عن طريق عملية التأويل التي تعيد تشكيله من جديد." (غانم ،ص:27) ومن هنا "يصبح النص خارج دائرة المؤلف ويبدأ

في البحث عمن يعطيه الديمومة والحيوية ألا وهو القارئ / الناقد، المؤول للنص،" (غانم ،ص:27) وبالتالي فإن " مفهوم القراءة غير محدد نظريا ومنهجيا ولا يمكن تعرفه أو التعريف به إلا ضمن حالة إنجاز تترجم علاقة ما بالنص " (الدغمومي،ص: 272) بذلك " لا يكون في استطاعتنا تحصيل المعنى دون فعل القراءة، لأن القارئ بالأساس هو شريك في إنتاج الفهم، وكذلك التأويلية التي تعتبر من شروطها هو البحث في إمكان الفهم، فأن تقرأ يعني أن تنتج نصًّا جديدًا، (غانم،ص:27) .

مما سبق يظهر دور فاعلية القراءة والقارئ المنتج الذي يستطيع أن يعيد بناء النص من جديد برؤية تختلف عن مؤلف النص الأولى ويقدم قراءة تفتح على قراءات متعددة ومستمرة للنص وتفتح آفاقا أخرى منتجة ومن هنا نحاول من خلال الدراسة تقديم قراءة تأويلية لقصيدة وصف الجبل لابن خفاجة الاندلسي.

أولا: دلالة الزمان في قصيدة الجبل: لقد أقلق الزمن الشاعر مما ولد في نفسه هاجس الحيرة والاضطراب فبداية القصيدة تنبئ عن إشكالية الزمن الذي يمضي ولا يعود والذي يسيطر على حياة الإنسان يقول:(ابن خفاجة،ص:47) .

بَعَيشِكَ هَل تَدري أَهوجُ الجَنائِبِ تَخُبُّ بِرَحلي أَم ظُهورُ النَجائِبِ

فَما لُحتُ في أولى المَشارِقِ كَوكَباً فَأَشرَقتُ حَتّى جِئتُ أُخرى المَغارِبِ

وسأتناول دراسة الزمن من خلال الألفاظ الدالة على الزمن والأفعال في نص القصيدة والشكل التالي يبين الكيفية التي قسمت فيها الزمن لدراسته

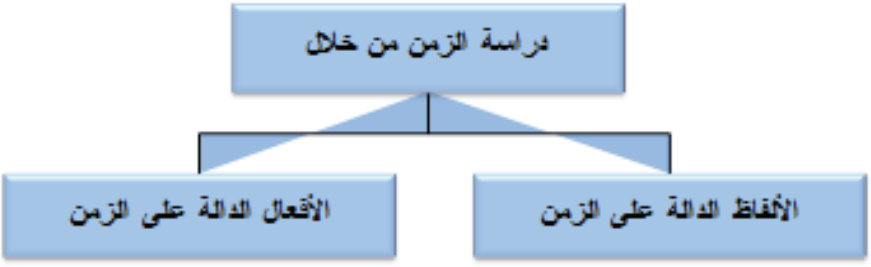

1. **الألفاظ الدلالة على الزمان في القصيدة:** وتقصد كل الألفاظ التي دلت على الزمن أو حملت مضمونا يعبر عن الزمن مثل لفظ الليل، اليوم .....الخ سأتتبعها من خلال أبيات القصيدة بقول الشاعر: (ابن خفاجة، الديوان، ص: 47- 48-49)

ما لُحتُ في أولى المَشارِقِ كَوكَباً ... شرَقتُ حَتّى جِئتُ أُخرى المغارِبِ

وَلا أُنسَ إلّا أَن أُضاحِكَ ساعَةً ... تُغورَ الأَماني في وُجوهِ المَطالِبِ

وَلَيلٍ إذا ما قُلتُ قَد بادَ فَانقَضى ... تَكَشَّفَ عَن وَعدٍ مِنَ الظَنِّ كاذِبِ

سَحَبتُ الدَياجي فيهِ سودَ ذَوائِبٍ ... لِأَعتَنِقَ الآمالَ بيضَ تَرائِبِ

مَزَّقتُ جَيبَ اللَيلِ عَن شَخصِ أَطلَسٍ ... تَطَلَّع وَضاحَ المَضاحِكِ قاطِبِ

رَأَيتُ بِهِ قِطعاً مِنَ الفَجرِ أَغبَشاً ... تَأَمَّلَ عَن نَجمٍ تَوَقَّدَ ثاقِبِ

سدُّ مَهَبَّ الريحِ عَن كُلِّ وُجهَةٍ ... و يَزحَمُ لَيلاً شُهبَهُ بِالمَناكِبِ

وَقورٍ عَلى ظَهرِ الفَلاةِ كَأَنَّهُ ... طِوالَ اللَيالي مُفكِّرٌ في العَواقِبِ

أَصَختُ إِلَيهِ وَهوَ أَخرَسُ صامِتٌ ... فَحَدَّثَني لَيلُ السُرى بِالعَجائِبِ

وَكَم مَرَّ بي مِن مُدلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ ... وَقالَ بِظِلّي مِن مَطِلِّي وَراكِبِ

وَحَتّى مَتى أَرعى الكَواكِبَ ساهِراً ... فَمِن طالِعٍ أُخرى اللَيالي وَغارِبِ

فمن خلال الأبيات السابقة في القصيدة تتبعت الألفاظ الدالة على الزمان وفق الجدول التالي :

رقم البيت	اللفظ الدال على الزمن	المعنى الدال عليه
2	المشارق – المغارب	الشروق (وقت شروق الشمس) –الغروب (وقت غروب الشمس)
5	ساعة	جزء من الوقت وهي 60 دقيقة
6	ليل	جزء من الوقت
7	الدياجي	الظلام وهو جزء من الليل
8	الليل	–
9	الفجر	–
11	ليلا	–
12	الليالي	–
14	ليل – السُرى	السُرى (السير في الليل)
16	قال	منتصف النهار(الظهيرة)
22	ساهرا – الليالي	السهر عدم النوم في الليل
25	السُرى	(السير في الليل)

نلاحظ من الجدول أن الألفاظ الدالة على الليل أكثر من الألفاظ الدالة على النهار وهذا يعطي دلالة على ارتباط الشاعر بالليل أكبر من النهار ففي الليل تكثر الهموم وتتداعى الهواجس وتستبد به الآلام وهذا جعل دلالة الزمن تتحرك في إطار الزمن المغلق المقيد وتستبعد الزمن المفتوح غير المقيد.

2. **الأفعال ودلالة الزمن في القصيدة:** عرف علماء اللغة والنحو الفعل بهو « ما دل على اقتران حدث بزمان » (ابن يعيش،ج4 ،ص: 204) ومن هنا تقسم الفعل نتيجة الاقتران بالزمان إلى أقسام وهذا جعلنا نوظف هذه الأقسام للدلالة على الزمن في النص ومن هنا سأتناول الزمن في القصيدة من خلال ثلاثة مرتكزات هي : (الماضي – والحاضر – والمستقبل)

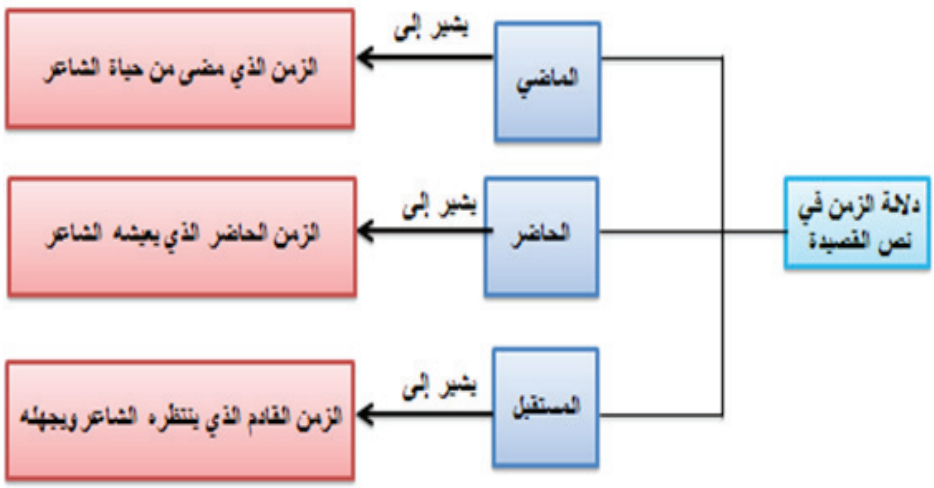

أولا – دلالة الزمن الماضي: هو ذلك الزمن الذي مضى من حياة الشاعر ولا يمكن أن يعود فقد عاش الشاعر في أحضان الطبيعة الخلابة بجزيرة شقر حيث تتحدث الطبيعة وتتغنى بالحياة والاستقرار فغرق في ملذات الحياة وفي اللهو والمجون فصاحب إخوة وأصحاب في ظل السعادة والاستقرار ولكن الأحوال تغيرت واحتل الاسبان البلاد فتشرد الأصحاب وتفرقوا ورحل الشاعر في عداد الراحلين فأصبحت تلك الأيام ذكرى وزمنا مستحيل رجوعه وبالتالي فمجال عودتها متوقف على الخيال ولهذا كثرت الأفعال الماضية في النص مما يدل على حضور الزمن الماضي في ذهن ونفسية الشاعر ويفرض الزمن الماضي وجوده في النص من خلال المكان والمكان في الماضي ملجأ لكل مذنب وموطنا لكل عابد تائب يقول: (ابن خفاجة،ص:48)

وَقالَ أَلا كَم كُنتُ مَلجَأً قاتِل وَمَــوطِنَ أَوّاهٍ تَبَـــتَّلَ تائب
وَكَم مَرَّ بي مِن مُدلجٍ وَمُؤَوِّبٍ وَقالَ بِظِلّي مِن مَطِيٍّ وَراكِبِ

ثانيا - دلالة الزمن الحاضر: يتمثل في الواقع الذي يعيشه الشاعر في الحاضر والشاعر يعيش حاضرا أليما قاتما فقد غادر الوطن الذي عاش فيه وفقد الأصحاب ورفاق الدرب، واستعرض سنوات عمره فوجدها قد مرت فشعور الأسف والحسرة يكاد يصبغ القصيدة بوشاح السواد حين يقول: (ابن خفاجة، ص: 47-48)

وَحيداً تَهاداني الفَيافي فَأَجتَلي وَجوهَ المَنايا في قِناعِ الغَياهِبِ
وَلا جارَ إِلّا مِن حُسامٍ مُصَمَّمٍ وَلا دارَ إِلّا في قُتودِ الرَكائِبِ
وَلا أُنسَ إِلّا أَن أُضاحِكَ ساعَةً ثُغورَ الأَماني في وُجوهِ المَطالِبِ

يصور الشاعر معاناته في الزمن الحاضر الذي يحيا فيه فهو (وحيدا تهاداني الفيافي... ولا جار .... ولا دار .... وليل ... ووجوه المنايا، قناع الغياهب، ثغور الأماني، ووجوه المطالب ...) فكل هذه المعاني والألفاظ تدل على ما تنطوي عليه نفسية الشاعر وما يعيشه في الحاضر من الآلام ومعاناة وهموم وقد نجح في توظف المجاز والتشخيص لتصوير حالته وواقعه كما عبر الشاعر عن تألمه لفقد الأصدقاء والأصحاب حين قال: (ابن خفاجة، ص: 49)

وَما غَيَّضَ السُلوانَ دَمعي وَإِنَّما نَزَفتُ دُموعي في فِراقِ الصَواحِبِ

ونستشعر ضجر الشاعر من حاضره وواقعه بعد أن فقد الوطن والأصحاب في قول (ابن خفاجة، ص: 49)

فَحَتّى مَتى أَبقى وَيَظعَنُ صاحِبٌ أُوَدِّعُ مِنهُ راحِلاً غَيرَ آيِبِ
وَحَتّى مَتى أَرعى الكَواكِبَ ساهِراً فَمِن طالِعٍ أُخرى اللَيالي وَغارِبِ
فَرُحماكَ يا مَولايَ دِعوَةَ ضارِعٍ يَمُدُّ إِلى نُعماكَ راحَةَ راغِبِ

وفي قوله: (ابن خفاجة، ص: 49)

فما خفق أيكي غير رجفة أضلع فمن طالع أخرى الليالي وغارب

ثالثا - دلالة زمن المستقبل: ونقصد به الزمن الذي الآتي المجهول الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه والنظرة لهذا الزمن ترتبط بالماضي الذي مضى والحاضر الذي يعيشه الشاعر وفي هذا النص ارتبطت نظرة الشاعر للمستقبل بالحاضر الأليم الذي يعيشه وبناء على ما تقدم وما بينا في الزمن الحاضر بأن الشاعر يعيش حاضرا مؤلما قاتما فإن ذلك انعكس على نظرته للمستقبل حيث أصبح المستقبل موشحا بالسواد وبنظر إليه بعين الظن والريبة يحين يقول:(ابن خفاجة، ص: 48)

وَلَيلٍ إِذا ما قُلتُ قَد بادَ فَانقَضى تَكَشَّفَ عَن وعدٍ مِنَ الظَنِّ كاذِبِ

سَحَبتُ الدَياجي فيهِ سودَ ذَوائِبٍ لِأَعتَنِقَ الآمالَ بيضَ تَرائِبِ

فَمَزَّقتُ جَيبَ اللَيلِ عَن شَخصِ أَطلَس تَطَلَّعَ وَضّاحَ المَضاحِكِ قاطِبِ

رَأَيتُ بِهِ قِطعاً مِنَ الفَجرِ أَغبَشاً تَأَمَّلَ عَن نَجمٍ تَوَقَّدَ ثاقِبِ

وبعد تتبع مسار الأفعال في نص القصيدة تبين الفارق الكبير بين نسبة الأفعال الماضية إلى الأفعال المضارعة حيث شكل الفعل الماضي نسبة 68.6 ٪ والفعل المضارع نسبة 31.4 ٪ وهذا يعطي دلالة على ارتباط الشاعر بالماضي أكثر من الحاضر والمستقبل فالماضي جميل بالنسبة له لأنه عاشه في وطنه وبين أهله في جزيرة شقر وهي جزيرة تتميز بطبيعة جميلة خلابة وفيها ولد الشاعر وعاش طفولته وشبابه وبداية كهولته بين أهله وأصحابه.

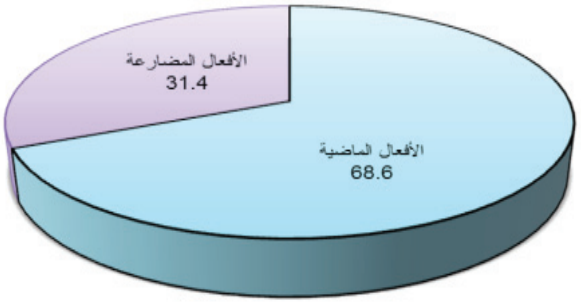

شكل يوضح نسبة الأفعال الماضية والمضارعة في النص

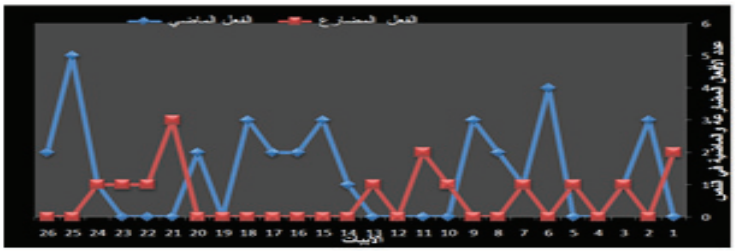

شكل يوضح حركية الأفعال في القصيدة من خلال كل بيت

نلاحظ من خلال الشكل البياني ارتفاع معدلات الفعل الماضي أمام الفعل المضارع وهذا يوكد النتيجة التي توصلت إليها الدراسة من أن الشاعر يرتبط بالماضي ويعيش تفاصيله بخلاف المضارع الذي يمثل الحاضر الأليم والذي أصبح يعيشه الشاعر بسبب تركه لوطنه وفقده لأهله وأصحابه وأصبح في مكان آخر يختلف عن المكان الذي ولد وترعرع فيه فقد غادر الأندلس وصار في المغرب وهذا الوضع أثر على نفسية الشاعر.

● **ثانيا: دلالة المكان في قصيدة الجبل**

يمثل المكان نقطة ارتكاز محورية في القصيدة فقد ارتبط المكان بذات الشاعر نتيجة الشعور بالفقد بمختلف أنواعه سواء فقد الأنس، أم الصاحب، أم الوطن ..... الخ فقد ارتبط الشاعر بالمكان (الوطن) وعندما غادره سيطرت عليه مشاعر الحزن والألم بسبب الشعور بالوحدة والغربة والفقد يقول : (ابن خفاجة، ص:47-48)

وَحيداً تَهاداني الفَيافي فَأَجتَلي وَ جوهَ المَنايا في قِناعِ الغَياهِبِ
وَلا جارَ إِلّا مِن حُسامٍ مُصَمَّمٍ وَلا دارَ إِلّا في قُتودِ الرَكائبِ
وَلا أُنسَ إِلّا أَن أُضاحِكَ ساعَةً ثُغورَ الأَماني في وُجوهِ المَطالِبِ

فشعور الشاعر بالوحدة والغربة كان الباعث وراء توحد الشاعر بالمكان (الجبل) والارتباط به وظهور دلالة التشابه بينهما في العديد من الأمور فقد رأى فيه مراحل حياته في وطنه ورأى فيه شبابه وشيخوخته ومن هنا كان التوحد نتيجة للذات المرتبطة بالوحدة والغربة والمكان (الجبل) المرتبط بالوطن ومن هنا تظهر العلاقات ودلالاتها بين الشاعر

والمكان (الجبل) فعلاقة الاتحاد بين الشاعر والجبل لها دلالات وعلاقة الانفصال بين الشاعر والجبل لها دلالات والأشكال التالية توضح العلاقات والدلالات المرتبطة بها.

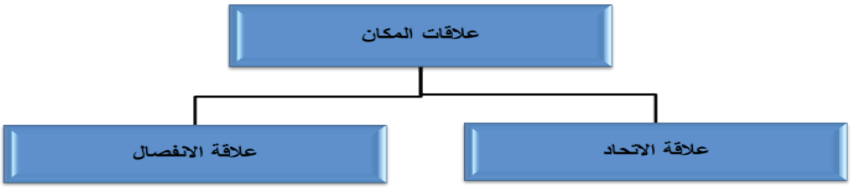

فعلاقة الاتحاد وعلاقة الانفصال كلاهما بين الشاعر والجبل الذي وصفه في القصيدة وهذا ما يبينه الشكل التالي:

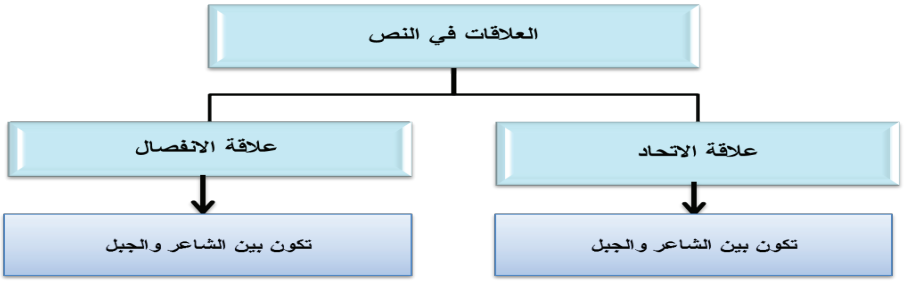

فهذا الشكل يوضح علاقة الاتحاد والانفصال بين الشاعر والمكان المتمثل في الجبل

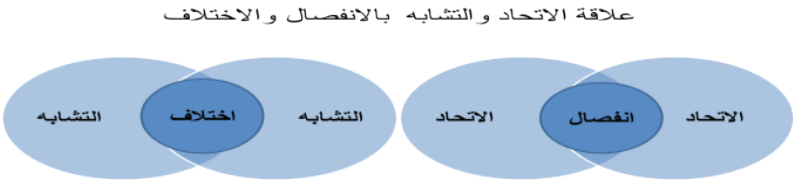

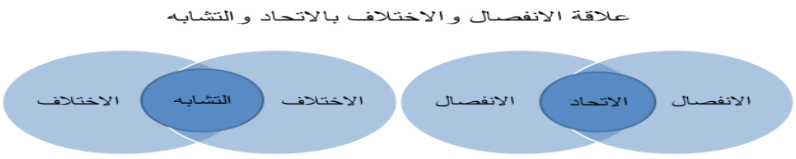

اتضح لنا من خلال النص والأشكال السابقة أن علاقة الاتحاد مع الجبل= التشابه مع الجبل وعلاقة الانفصال عن الجبل = الاختلاف مع الجبل، فالشاعر اتحد وتشابه مع الجبل في بعض الأمور والأشياء وانفصل واختلاف أيضا في بعض الأمور والأشياء والشكل التالي يوضح النقاط التي اتحد وتشابه فيها الشاعر مع الجبل والتي انفصل واختلف فيها عنه.

الأشياء المشتركة بين الشاعر والجبل وأدت إلى الاتحاد والانفصال والتشابه والاختلاف

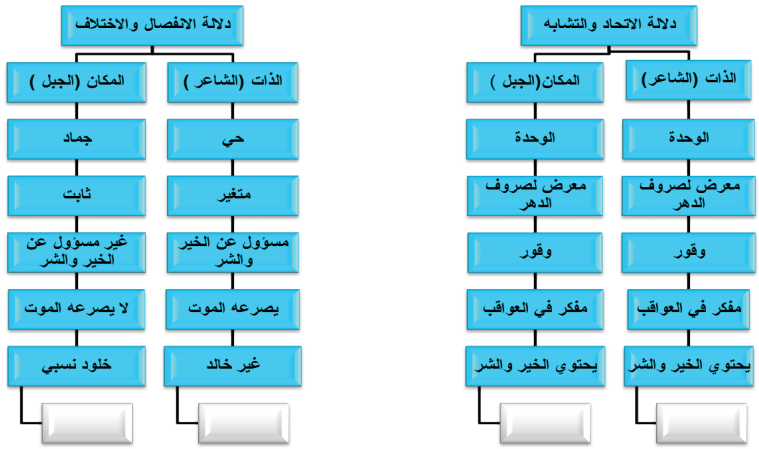

يتضح لنا من خلال الشكل الأسباب التي قادت الشاعر للاتحاد بالمكان (الجبل) ومنها أن كلاهما يعيش في وحدة وغربة وكلاهما تعرض لصروف الدهر ولكن هذه الأسباب وغيرها لم تكن الباعث وراء استمرار الشاعر في الاتحاد مع المكان فقد تبين له وجود أسباب أخرى تدعوه إلى الانفصال وهي أسباب ترتبط بخصوصية الشاعر وخصوصية الجبل ومنها حتى لا نطيل فالشاعر كائن حي والجبل جماد والشاعر عمره محدود في هذه الحياة وعرضة للموت في أي لحظة على عكس الجبل الثابت رغم توالي السنين والشاعر بوصفه إنسان عاقل فهو مسؤول عن الخير والشر خلاف المكان (الجبل) فهو غير مسؤول عنهما .

وبعد كل ما سبق فإن علاقة الاتحاد والتشابه والانفصال والاختلاف بين الشاعر

والمكان (الجبل) كلها كانت نتيجة الذات والزمان والمكان مجتمعة والشكل التالي يوضح ذلك.

السبب في الاتحاد و الانفصال و التشابه و الاختلاف بين الشاعر و المكان (الجبل)

● **ثالثا: البعد التأويلي للمكان (الجبل) في النص**

يبدو من الوهلة الأولى أن الشاعر يصف جبلا مر به أو شاهده مشاهدة مفاجئة فحاول أن يوظف الجبل لما يعتمل في نفسه. وبعد دراسة النص والوصف الذي قدمه الشاعر للجبل تبين لنا على المستوى التأويلي أن رمزية الجبل لا تقف عند المشاهدة والمفاجأة ؛ وإنما تتسامى لتسمو بالجبل إلى آفاق أخرى قد لا تحدها هذه الدراسة فبإمكان أي قارئ أن يؤول الرمز الأساسي في القصيدة وفق القراءة التي يطرحها وسأحاول أن أقدم إضاءة بسيطة في تأويل النص موضوع الدراسة وبناء على ذلك فإن محاولة التأويل تنصب على الذات والمكان باعتبار أن النص يعبر عن قائله ويرمز الجبل إلى المكان المتمثل الوطن (شقر) وهي «بفتح أوله وثانيه جزيرة في شرقي الاندلس وهي أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وسحراً وماء» (ياقوت الحموي ، ج3 ، ص : 354) فبعد أن حل الدمار بموطنه وخروجه منه أحس الشاعر بالغربة وفقد الوطن وفي المكان الجديد الذي استقر فيه شعر بالغربتين معنا المكانية والنفسية وقد أصبح بين قوم لم يألفهم يقول : (ابن خفاجة، ص: 227)

فيا لشجا الصدر من الصبر فارغ ويالقذى طرف من الدمع ملآن

ونفس إلى جو الكنيسة صبة وقلب إلى أفق الجزيرة حنان

تعوضت من وها بآه ومن هوى بهون ومن إخوان صدق بخوان

فيا ليت شعري هل لدهري عطفة فتجمع أوطاري عليّ وأوطاني

فعلى الرغم من وجود الشاعر في عدوة المغرب بعد نزوحه إلا إن قلبه ظل متعلقاً

بشقريقول: (ابن خفاجة، ص:238-239)

كفانيَ شَكوى أَن أَرى المجد شاكِيا وحسبُ الـرَّزايـا أن تراني باكيا
أُداري فُـؤاداً يصــدعُ الصدرَ زفـرةً ورجـعَ أَنِـينٍ يجلبُ الدمعَ ساجِيا
وهـا أنـا تلقاني الليالي بملئهـــــا خطوباً وألقى بالعويلِ الليـاليا
وتطوي على وخز الأشـافِي جوانحي توالي رزايـا لا ترى الدّمع شافِيا
أأحبابَنا بالعــدوتَين صممـــــــتمُ بحكم الليالي أن تجيبوا المناديا
فقيدت من شكوى وأطلقت عبرتي وخفضت من صوتي هنالك شاكيا
أحـنُّ إذا ما عسعــس الليل حنـــة تذيب الحوايا أو تفضُّ التراقيا
وأُرخـص أعـلاق الدموع صبابـــةً وعهدي بأعلاقِ الدموعِ الغواليا
وتـنـدبُ عـهـداً قــد تقضى بِرامـــةٍ ووكـراً بأكناف المشقر خاليا

وفي قصيدة أخرى يتحرق شوقا إلى جزيرة شقر يقول:(ابن خفاجة، ص: 145-146)

فقلت ولـي دمـع ترقـرق فانهمر يسيل وصبرٌ قد وَهى فتضعضعا
ألا هل إلى أرض الجزيرة أوبة فأسكن أنفاسـا وأهدأ مضجـعا
وأغدو بواديها وقد نضح الندى معاطف هاتيكَ الرُّبى ثم أقشعا

ومن يقرأ ديوان الشاعر سيجد الكثير من الأبيات التي يبثها في قصائده توضح شوقه لموطنه (شقر) والحسرة على فقده وفقد الاصدقاء والأهل والجيران ويلمس القاري مشاعر الألم والحزن التي تعتمل في نفس الشاعر وسنكتفي بهذا القدر من الأمثلة حتى لا نطيل الورقة. وبعد كل ما سبق نستطيع القول إن الشاعر كان على تواصل مستمر بوطنه وكان الوطن بالنسبة إليه شيء يضرب بجدوره في أعماق نفسه فهو جزء لا يتجزأ من كيان أي إنسان وهذا يفسر سر اختيار الشاعر للجبل الذي يضرب بجدوره في أعماق الأرض بثبات.

وإحساس الشاعر بالوحدة جعله يجد في الجبل ذات السمات والمعاناة التي يعانيها لذلك لاحظنا في دلالة التوحد مع الجبل في علاقة الاتحاد والمشابهة التي تناولتها في دلالة المكان تظهر أهمية المكان (الجبل) الذي اسقطه الشاعر على الوطن وهذا يفسر سر تقديم الشاعر لقصيدته بالحديث عن الوحدة والغربة يقول:(ابن خفاجة ،ص:47-48)

وَحيداً تَهاداني الفَيافي فَأَجتَلي وَجوهَ المَنايا في قِناعِ الغَياهِبِ
وَلا جارَ إِلّا مِن حُسامٍ مُصَمَّمٍ وَلا دارَ إِلّا في قُتودِ الرَكائبِ
وَلا أُنسَ إِلّا أَن أُضاحِكَ ساعَةً ثُغورَ الأَماني في وُجوهِ المَطالِبِ

فمن هذه الابيات نلمس شعور الشاعر بالوحدة والفقد والغربة ونشعر أن الشاعر وحيداً منطوياً قد هده الكبر والهرم ومضى الشباب وفقد الأصحاب والوطن فهذا الشعور –شعور الفقد– ظل يرافق الشاعر ويذكره في كل لحظة بالرحيل والفناء فلا جار كما يقول إلا من حسام ولا دار إلا فوق ظهور الركائب وكأنه لا استقرار فإيقاع الرحيل منطبع مسيطر على الشاعر ونفسه.

ومن خلال القصيدة يوقفنا الشاعر على مراحل حياته ويربطها بالمكان (الجبل) ليؤكد أن هذه المراحل ارتبطت بالوطن يقول: (ابن خفاجة، ص:48)

وَأَرعَنَ طَمّاحِ الذُؤابَةِ باذِخٍ يُطاوِلُ أَعنانَ السَماءِ بِغارِبِ
يَسُدُّ مَهَبَّ الريحِ عَن كُلِّ وُجهَةٍ وَيَزحَمُ لَيلاً شُهبَهُ بِالمَناكِبِ
وَقورٍ عَلى ظَهرِ الفَلاةِ كَأَنَّهُ طِوالَ اللَيالي مُفكِّرٌ في العَواقِبِ

فالرعونة صفة أكثر ما تكون لصيقة بمرحلة الشباب فالشباب دائما كثير الطموح ويحاول الوصول إلى أقصى الغايات، أما الوقار فمن سمات الإنسان الذي تعدى مرحلة الرعونة ليصل إلى الوقار فالشيخ الكبير الذي عرك الحياة وخرج منها بالتجارب والعبر لذلك نجده كثير التفكير وإمعان النظر والتأمل في الأمور وعواقبها وهذا ما نجده عند الشاعر فقد عاش شباب غارق في الملذات والعبث ثم انقطع عن قول الشعر ثم تلتها مرحلة أخرى من حياته تمخضت عن انتاجه العميق فقد عرف الحياة وخبرها وأحب أن

ينقل تجربته من خلال حوار صاغه مع الجبل والوطن الذي أبى إلا إن يموت فيه يقول : (ابن خفاجة ، ص: 49)

فَأَسمَعَني مِن وَعظِهِ كُلَّ عِبرَةٍ يُتَرجِمُـــا عَنهُ لِســـانُ التَجارِبِ

فَسَلّى بِما أَبكى وَسَرّى بِما شَجا وَكانَ عَلى عَهدِ السُرى خَيرَ صاحِبِ

نجح الشاعر في توظيف رمز الجبل للدلالة على الوطن فالإنسان لا يمكنه التخلي عن الوطن الذي ولد وعاش فيه أو نسيانه.

■ **الخاتمة**

وبعد العرض السابق في دراسة دلالة الزمان والمكان تبين أن الشاعر قد نجح في توظيف الزمان والمكان لبناء صورة تعبر عنه وعن الأحداث التي عاشها فلم يكن الجبل ذلك المكان الجامد الساكن؛ وإنما أصبح الجبل ذلك المكان الذي عبر عن وطن الشاعر فالجبل عبارة عن إسقاط للدلالة على الوطن الذي فقده الشاعر فمن توظيف دلالات الزمان والمكان استطعت مقاربة النص للدلالة على الوطن من خلال توظيف البعد التأويلي للنص وخرجت الدراسة بالعديد من النتائج منها:

1- في دلالة الزمن تحرك النص في إطار الزمن المغلق المقيد وابتعد عن الزمن المفتوح غير المقيد.

2- لاحظنا في النص من خلال الدراسة أن الألفاظ الدالة على الليل أكثر من الالفاظ الدالة على النهار والسبب في ذلك أن الليل ارتبط بالهموم والهواجس والألم والمعاناة وكل ذلك سيطر على الشاعر ففي الليل تكثر الهموم والأوجاع وتتداعى الذكريات على الشاعر.

3- في دلالة الأفعال على الزمن طغى الزمن الماضي وانحصر المضارع الدال على الحاضر فدلالة الماضي هيمنت على النص وأعطت دلالة على ارتباط الشاعر به فهو يذكره بالأيام الجميلة التي قضاها في وطنه في جزيرة(شقر) المتميزة بطبيعتها الخلابة بين أهله وأصحابه في وطنه الذي هجره أما الحاضر فقد ارتبط بمعاناة الشاعر في الغربة بعد مغادرة وطنه وفقده الأهل والأصحاب.

4- اتضح لنا من خلال الأشكال الدالة على علاقة الاتحاد والتشابه والانفصال والاختلاف أن هذه العلاقات كانت بسبب الذات والزمان والمكان.

وبعد كل ما سبق فهذه الدراسة هي قراءة للنص وهذه القراءة تفسح المجال لقراءات أخرى قد تتوافق معها وقد تختلف ولكن يبقى لكل دراسة طابعها الذي يميزها والمنهج والرؤية التي اعتمدت عليها.

■ابن خفاجة الأندلسي : هو إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله بن خفاجة ولد عام 450 هـ - 1058م في جزيرة شقر بالقرب من بلنسية (الزركلي، 1997، مج1، ص: 57)، يكنى بأبي إسحاق ويلقب بالجنان لأنه أكثر من الجنان والحدائق في شعره وغرق في مطلع شبابه في اللهو والمجون وقضى حياته دون أن يتزوج(فروخ ، ج5 ، ص: 221) ، عاش حياة مليئة بالأحداث والأزمات وشهد سقوط المدن الأندلسية واجتياح الأسبان لمدن الاندلس وموطن الشاعر "شقر" وما حل بها من دمار وخراب حيث اضطر للخروج من موطنه مع جموع الراحلين لتحط به الرحال في عدوة المغرب على البر الأفريقي حيث قضى ثلاثة أعوام بعيدا عن وطنه كابد فيها الشوق والحنين إلى الديار والاهل والاصدقاء (الدقاق،ص: 192).

■ **المصادر والمراجع:**

1-أسامة غانم. (2022م). جدل التأويلية (الكتابة / النص – القراءة / الفهم). (ط1). القاهرة - مصر: دار الحكمة.

2-ابن خفاجة الاندلسي (د.ت). ديوان ابن خفاجة. (د. ط). (تقديم: أحمد أكرم الطباع). بيروت – لبنان: دار القلم.

3-خير الدين الزركلي. (1997م). الأعلام. (ط12). بيروت – لبنان: دار العلم للملايين.

4- رحيمة عايزري. (2012 -2013). النص والمهج قراءة في كتاب نظريات القراءة المعاصرة:" حبيب المونسي" نموذجا. رسالة ماجستير. قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والانسانية. جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي: الجمهورية الجزائرية.

5- عمر الدقاق. (د.ت). ملامح الشعر الأندلسي. (د. ط). بيروت – لبنان :دارالشرق العربي.

6- عمر فروخ.(1981 م). تاريخ الأدب العربي. (د.ت) بيروت – لبنان : دار العلم للملايين.

7-مصطفى عطية جمعة. (2023 م). الرؤية والأداة جماليات المكان والزمان والتأويل في النص الأدبي. (د. ط). مصر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون).

8-العيد جلولي وعبد القادر خليف. (2017). القراءة والتأويل من منظور اصطلاحي. مجلة الأثر. (جوان. العدد28) . الجزائر.

9- محمد الدغمومي . (1999). نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر. (ط1). منشورات كلية الآداب الرباط. البيضاء-المغرب: مطبعة النجاح.

10-هوارية قادة، ونسرين صافي. (2020-2021). التأويل وقراءات النص الشعري عند فالح علاق. رسالة ماجستير. قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة ابن خلدون: تيارات: الجزائر.

11-ياقوت بن عبد الله الحموي. (د. ت). معجم البلدان. (د. ط). بيروت – لبنان : دار صادر.

12- يعيش بن علي بن يعيش. (2021). شرح المفصل للزمخشري.) تح : إميل بديع يعقوب (.ط1) . بيروت –لبنان دار الكتب العلمية.